

العظة التي ألقاها المطران الياس عودة يوم عيد الميلاد (٢٠٠١) في الأشرافية

"المجد لله في العلى وعلى الارض السلام وفي الناس المسرة".

ليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع ايضا، الذي اذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة ان يكون معادلا لله، لكنه اخلى نفسه آخذا صورة عبد، صائرا في شبه الناس، واذ وجد في الهيئة كإنسان وضع نفسه واطاع حتى الموت، موت الصليب، لذلك رفعه الله ايضا واعطاه اسما فوق كل اسم لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومن على الارض ومن تحت الارض، ويعترف كل لسان ان يسوع المسيح هو رب لمجد الله الأب" (فيلبي: ٢: ٥ - ١١).

يسوع المسيح هو معلمي وربي، وهو الذي لقتني فلسفة الحب. هذا الذي كان في عليائه، في مجده الازلي، لم يرتض ان يرى خليقته في الم وتمرمم وعذاب مستمر، فانحدر نازلا الى من صورته منذ القديم على صورته، وشاء ان يمشي ويتخطر ويعيش مع من يعيش في بؤرة الخطيئة والفساد والرذيلة والظلم ليخلصه. إلهنا يشاء خليقته ان تكون في الفرح الدائم الابدي. هو لا يشاء ان يكون وحده لأنه محبة، والمحبة تلد وتبدع وتخلق. الله هذا الذي نعبد، وهو الذي ابدع العالم وخلق الكون، هو مصدر النور والحياة. هذا الاله فاض وما زال يفيض محبة من اجل ان يكون العالم والكون كله في نور وبهاء لا ظلمة فيه. فمن شاء ان يكون نورا وحياة يلتصق بالله فيستنير وينير، ومن يبتعد عن الله يصبح ظلمة ويشكل حاجزا بين النور والناس.

يسوع ابن الله جاء الينا وحل فينا لكي يستطيع الانسان ان يستعيد الطريق ويعرف الغاية التي منها اتى واليهما يذهب. حل في ما بيننا واتخذ طبيعتنا ولبس جسدنا، وقدس هذه الطبيعة التي مسها منذ القديم عندما خلقها بيديه وجعلها منه، قدسها وجعلها متأهبة بالحرية المنصاعة إلى ارادة الله. لقد أصبح الانسان مقدسا من جديد، متأهلا، لان الله دخل الطبيعة البشرية وجعلها متأهلة. أصبح فيها جاعلا اياها من جديد مصدرا للقداسة والحياة والنور. دخل ابن الله تيار الزمن - الذي يحركنا وفيه نتحرك - لينقذ من يكاد يغرق في امواج هذا الدهر. بتجسده اراد ان يعيد هذا الانسان، الذي تهشمت عظامه وتشوهت صورته، الى صورته الاولى، الى صورة الانسان الحقيقي. يسوع المسيح هو وحده صورة الله غير المنظور، وهو بهاؤه ورسمه، "كان في البدء عند الله. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يوحنا: ١ - ٣)، وقد تجسد لينقذ خليقته من الموت ويعيد تكوينها ويجعلها في الحياة. عندما انفرد الانسان عن الله وانعزل عن الحياة أصبح في الموت، فتجسد المسيح، اتخذ الانسان، وبموته امانت الانسان القديم واقامه بقيامته انسانا جديدا، الى بهاء مجد الله، واجلسه عن يمين الله الأب. كما بسط يسوع يده الى بطرس حين كان يغرق، بسط يده لجسد يموت او هو مهدد بالموت، انحدر اليه ومد يده لينتشله من الحال التي يزرع فيها. الانسان هو الخروف الضال والمسيح هو وحده الراعي الصالح الذي يقودنا الى المراعي الخصبة النضرة. لماذا تجسد يسوع؟ لكي يأخذ هذا الخروف الضال ويضعه على منكبيه ويصعد به الى السماء. لقد اتى يسوع من وطننا الحقيقي حيث كانت صورتنا كصورة يسوع. كل الاوطان مهددة، اما الوطن الذي فيه الرب إله وملك فلا يهدده كائن. كل البشر، مهما علت بناياتهم ومنجزاتهم، يزولون وتتهار ابنتهم كما ينهار الكوخ الخشبي بفعل الريح. لا احد يستطيع ان يبني برجاً بابلياً لا ينهدم. وانت ايها الانسان، مهما علوت وانتفخت وكبرت، فأنت خاضع للفناء ان لم يكن الله فيك. انت ترابي والى التراب ترجع.

الانسانية خسرت صورتها الحقبة بسبب الخطيئة، والخطيئة هي ذاك العمل او الفكر او القول الذي يجعل من قلوبنا غريبة عن الله ومنفية. وقد تجسد يسوع ليعيدنا الى حيث كنا، ليعيد ولادتنا من جديد على صورته. "انتم

الذين بالمسيح اعتمدتم، المسيح قد لبستم"، اصبحتم مسحاء. كل من اعتمد اتخذ قرارا ان يصبح إليها في المسيح يسوع. كيف يستعيد الانسان صورته الحقّة؟ عندما ينزل من برج زائف عال الى تواضع المحبة. عندها تنفتح كل غشاوة عن عينيه ويرى بوضوح. المحبون يرون. المحب يرى الصغير والكبير، ينتبه الى كل حركة، يهتم بكل شيء، يحمل بين جوارحه كل هم.

الانسان المسيحي قلق في كل حين كي لا يضيع او يضل. لكن الله يطمئنه الى انه حصل على نعمة تدفعه الى الامام. قلق الوصول عند المسيحي مرتبط بطمأنينة الوصول (القديس غريغوريوس النيصي). الانسان الذي يسير في درب الرب قلق في كل حين لانه محاط بالتجارب والاطّار، لكن الله يرافقه في خطواته ويؤكد له الطريق. اليوم نعيّد لذكرى يسوع، عمانوئيل الذي تفسيره "الله معنا". فمن يؤمن بيسوع الاله المتجسد يعي ان الله واقف عند باب قلبه يقرع ويقول افتح لي لأسكن قلبك وأغير حياتك وأجلك وأجعلك مضيئاً كالشمس المشعة. الله معنا. الله يبعد عنا كل ما يزعجنا ويسيء الى الطريق التي نحن عليها، يجعلنا من جديد أبناء، وهذه البنوة لا تحصل الا بالايمان بالابن الحقيقي يسوع المسيح. ان آمنتم تخلص. ان آمنتم ايماناً واعياً، حقيقياً وجودياً، كيانياً، صادقاً، تخلص. الله حياة، ان تكلمت معه يدخلك، يجتاز في مفاصلك، يخترقك الروح ويحركك. عليك فقط ان تقول كما قالت العذراء مريم "ها أنذا أمة للرب". المسيح الاله صار عبدا ليجمع العبيد الى مجد أبناء الله (فيلبي ٢: ٧). لم يستح ان يصبح عبدا، لم يأف - وهو الاله - ان يصبح مخلوقا، اي أخذ جسدا من مريم العذراء، ليخلص جنس البشر ويعيده الى أحضان الآب، ومن يحب يسوع يحب أباه الآب.

اليوم نعيّد لمن انحدر من فوق، من سمو لا يدرك الى محدودية ضيقة ضيق المذود. لم يخجل، وهو الاله وألوهته لم تكن مختلصة، ان يخلي نفسه ويتخذ صورة عبد. لم يتخل عن ألوهته لكنه لم يظهر مجده للناس، مجد وحيد الله، ولم يكشف مجده الا على الصليب، وعندما رفع جذب الجميع اليه. فقط عندما يصلب الانسان خطايه، عندما يصلب انسانه القديم يرفع لأن الصليب المقدس يرفع الانسان الى النقاوة والطهارة وكل ما هو سموي فيصبح الانسان سمويا.

في هذا الجو الميلادي نسأل الله ان يسكب سلامه في قلوبنا وفي أرضنا، وان يجمع أبناء هذا الوطن الى واحد في الحق. نسأله ان يسكب هدوءه وسلامه في أرض فلسطين حيث يمنع الناس من الذهاب الى الصلاة. أعداء الصلاة منعوا المصلين من الصلاة، ولا أقصد شخصا او اثنين. جعلوا من أرض السلام أرضا تبلىها الدموع وترويها الدماء. جعلوها أرضا يستباح فيها قتل الاطفال والأمهات والشيوخ ويسحق الانسان وكرامته. أين الدول العظمى التي تدافع عن الاخلاق وحقوق الانسان؟ لقد فضح كذبها ونفاقها. تهان ان قتل طفل من اطفالها وتغض الطرف عن أطفال يهانون ويقتلون كل يوم.

أرض فلسطين هي للشعب الذي عاش فيها اعواما طويلا الى أن جاء من يطرده من أرضه، والذين اغتصبوا أرض فلسطين ليسوا أبناء هذه الأرض بل جاؤوا من اوربا واميركا ومن أطراف العالم لينغصوا حياة شعب وهناه. والغريب ان أدمغة العالم تتصاح لهم، وهم يهددون الكون كله ورؤساء الدول يطأطئون الرأس لهم. أليس غريبا ان ينصر الجلاذ على الضحية؟ لم يبق في هذا العالم ضمير. صلاتنا ان تتسكب نعمة الله في القلوب والضمائر وان يحل سلام الله في العالم كله وفي فلسطين وفي لبنان الذي ننشد اليه في كل حين ونقتر دما ودموعا على كل نفس تفارق أرضه ونحزن لكل كلام يأس يصدر من فم مواطن. اني أتوجه من هذا المكان المقدس الى من هو بمثابة أب لهذا الوطن لأقول له انحدر كما انحدر يسوع الى آلام البشر وهمومهم، وانت منهم وتتألم كسائر البشر. انزل واحم الصغير من الكبير والمظلوم من الطاغية. احم الفقير والارملة من جشع الغني، وصاحب المصلحة الصغيرة من اصحاب المصالح الكبيرة الذين يدوسون دموعه ويرقصون على

ألمه. لقد جاءني في من يجيء الي جماعة كانت لها حصة في التعاونيات وضاعت. انا لا اعرف تفاصيل القضية لكنني اعرف كيف يأكل الاغنياء خبز الفقراء. لقد اخبروني ان رؤوس الاموال الكبيرة سحبت قبل اعلان افلاس التعاونيات فما افلس الا الصغار ولم يفلس الكبار. فيا صديقي الحبيب احب صاحب المصلحة الصغيرة من اصحاب المصالح الكبيرة. احمنا جميعا من تواطؤ النفوس الصغيرة. احمنا من اصحاب الرشوات الكبيرة التي لا تُرى فيما توضع الرشوات الصغيرة تحت المجهر. نحن لا ندافع عن السرقة والرشوة لكننا نتساءل لماذا يغض الطرف عن السرقات الكبيرة ولا تعلن وتحاكم الا السرقات الصغيرة.

نشتهي ان نجد بلدنا واحدا موحدنا ننعم فيه بالسلام يعم كل ابنائه، والعدل يطغى على كل حكم. نبتغي العدل رائيا بعينيه الصافيتين جميع الناس سواسية، لا يحول دون هذه النظرة الصافية انحياز او جور. ايها الاب الرئيس، كما نزل الرب يسوع الي حالتنا اليائسة المؤلمة، انزل الي اولئك الذين غمرتهم ظلمة السجون وظلم النفوس المتوحشة التي لم تعرف الله في قلبها ابدًا. هناك من يحب لبنان كما تحبه انت لا كما يحبه الذين يتملقونك ويتملقون حب لبنان. ادخل الي قلبك تجد ان ما ا قوله قريب جدا من الحقيقة.

قوتك ليست في تشرذم ابنائك. قوتك في سعة صدرك الذي يجمع كل ابنائه. الضمير الضمير لا يخضع الا لشروط الله ووصاياه. نحن نعلم اننا كلنا خطاة وقد اخطأنا الي نفوسنا والى الوطن. لكن محبة الاب الحنون لا تسمح بأن يبقى خطاة يسرحون ويمرحون فيما يرمى آخرون في عتمة السجون وكأنهم في عتمة النسيان. الظاهر الراهن غشاش، اللحظة غشاشة، ولا يبقى الوطن الا اذا تزينت جباه رجاله بالحق. يبقى لبنان اذا بقي فيه مواطن او اثنان او ثلاثة يعرفون الحق والحق يحررهم لكي يحرروا الوطن. اليوم ترفع تماثيل واصنام ستسقط جميعها. الاصنام ستنتهار وستظهر الحقيقة. والحق يظهر في توبة نصوح لا في من داس على الحق وسار.

ايها الرئيس الحبيب، يقولون عن كل قرار انه قرار سياسي، وهو يعتمد على اتهامات شائنة. هل نقصد بالقرار السياسي انه لا انساني؟ هل يكون القرار السياسي ظالما؟ لم لا يعامل الجميع بالتساوي؟ لم لا تسري الاحكام نفسها على الجميع؟ لم يسكت الشعب بالقرار السياسي؟ هل نعيش كأفراد ام كجماعة، كوحدة نشأتق اليها في كل حين؟ نحن نريد وطننا يزدهر فيه القلب والضمير لينتعث الانسان، والضمير الحي والقلب الطيب بمثابة الاوكسيجين الذي ينعش الانسان. وكما نقول "القلب الطيب" نقول "الانسان الطيب" اي الحي، وكان الانسان لا يحيا الا بقلبه. شعبي تائر القلب جائع الي الحق الذي لا يسمح بدوس كرامات الناس او بتحريك الموظفين ونقلهم من امكانهم كما تحرك احجار الطاولة، او ابعادهم ورميهم وكأن لا حاجة منهم ولا منفعة. ايها الرئيس الصديق، شباب الوطن يتحرق الي الكلمة المنعقة من كل قيد. شبابنا يرددون، عندما يسمعون مسؤولا يتكلم، قول داود النبي: "يتعللون بعلل الخطايا". نحن نجد فلذات اكبادنا وعصارة حياتنا تهجر الوطن وتهاجر وعلينا ان نداوي بأسهم ونمنع هجرتهم.

"زبانية الظلم": يا شباب بلدي وشاباته لا تياسوا. انتم ارز لبنان. انتم جبله وتلجه. انتم السحابة البيضاء التي تخترق سماءه السوداء الملبدة بالغيوم. انتم شباب لبنان، بدونكم يصبح عجزا مسنا قريبا من الموت. انتم حبا. انتم حياتنا. انتم فرحنا. لا تأبهوا لزبانية الظلم ووحشيتهم. كلما انتفضتم عرفنا ان لبنان باق وكلما صتمتم ونتمتم يؤدي نومكم الي الموت. يا شباب بلادي، انتم حب والديكم وحب كل من يحب لبنان. حفظكم الرب وحفظ لبنان. آمين".